جامعة بجاية

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات مقياس الأدب المقارن

المحاضرة رقم 02

أستاذ المقياس: د. لونيس بن علي

الأدب المقارن من منظور المدرسة الفرنسية

الجزء الأوّل

مدخل:

قبل الخوض في تعريف المدرسة الفرنسية، ودورها التأسيسي في حقل الأدب المقارن، يجدر بنا العودة إلى مفهوم (الأدب المقارن).

فعلى الرغم من أنّ المصطلح في ظاهره يوحي بالبساطة، إلاّ أنّه كغيره من المصطلحات المعرفية، لم يجر الاتفاق حول تعريف جامع له، والغالب أنّ المشتغلين في هذا الحقل، اتفقوا في العموم حول صعوبة تعريفه، أوّلا كمصطلح، وثانيا صعوبة تحديد مجاله المعرفي؛ بمعنى معرفة ما هي الموضوعات التي يختص بها الأدب المقارن دون غيره من حقول دراسة الأدب.

يبدأ الإشكال أوّلا في (التسمية)، التي بدت ملتبسة إلى حدّ كبير، فكثيرا ما يقع القراء في الخلط بين مجال الأدب وبين مجال دراسة الأدب، لأنّ تسمية هذا الحقل بـ (الأدب المقارن) قد يوحي للبعض أنّه نوع من الأنواع الأدبية، كأن نقول مثلا (أدب رومانسي) أو (أدب واقعي)

أو (أدب بوليسي)... إلخ. أضف إلى ذلك أنّ لفظة (مقارن) هي لفظة مبهمة، تثير – على حدّ تعبير رينيه ويليك (1903 – 1995) المتاعب دون شك. (01)

فالمقارنة هي في الأصل منهج استخدمه علماء ينتمون إلى تخصصات علمية دقيقة، مثل علم التشريح المقارن، علم الفيزيولوجيا المقارن، قبل أن تجد اللفظة متأخرة طريقها إلى الحقل الأدبي، ولذا، لم يرد ذكرها في كتب تاريخ الأدب إلاّ حديثاً.

التحديد التاريخي لظهور لفظة المقارنة في الحقل الأدبي:

تاريخيا يصعب تحديد متى وأين أُستعملت لفظة المقارنة لأوّل مرة في حقل الأدب. والواضح أنّ حتى هذه التواريخ الافتراضية، اختلفت من بلد أوروبي إلى آخر. ويُقال أنّ لفظة المقارنة قد وردت بشكل عابر في إحدى مسرحيات وليام شكسبير، وعلى لسان شخصية من شخصياته. لكن هذا لا يبدو مُحفّزا لاعتباره حدثا تاريخيا مهما في نشوء هذه اللفظة أدبيا. غير أنّه في عام 1598، ظهر كتاب بعنوان مُلفت (بحث مقارن في شعرائنا الإنجليز والشعراء اليونانيين واللاتينيين والايطاليين) للكاتب (فرانس ميرز) (02)

يُعتبر ماثيو آرنولد أوّل من استعمل استعمالا تخصصيا وواعيا لفظة (المقارن) في اللغة الإنجليزية عام 1848. غير أنّ الفرنسيين كانوا الأسبق، حسب سوزان بانست، إذ هناك شبه اتفاق بأنّ لفظة المقارن قد وردت في المقررات الدراسية في مجال تدريس الأدب تحت عنوان عريض (مقرّر في الأدب المقارن) ويعود هذا إلى سنة 1812.

وقبل هذا التاريخ، صدر كتاب لكوفييه بعنوان (التشريح المقارن) عام 1800، والذي هو بمثابة المرجعية التأسيسية لإبراز مصطلح (الأدب المقارن). في حين أنّ الانطلاقة الحقيقية لحقل الأدب المقارن، كانت على يد (فرانسوا فيلمان) بدارسة كتبها بعنوان (صورة الأدب الفرنسي في القرن الثالث عشر) صدرت ما بين 1828 و 1829، حيث أورد في هذه الدراسة مجموعة من المصطلحات الأساسية، مثل: الصورة المقارنة، دراسات مقارنة، تاريخ مقارن، أدب مقارن.

وبعد عام من صدور هذه الدراسة ألقى (جان جاك أومبير) محاضرة في ثانوية مارسيليا عام 1830 بعنوان (التاريخ المقارن للفنون والآداب عند الشعوب كلها)(03).

وإذا دققنا جيدا في رمزية هذه التواريخ، سنكتشف أنّ ظهور الأدب المقارن تزامن مع سيادة الحركة الرومانسية، وذيوع النزعة التاريخية في الفكر والفلسفة والأدب، وكذا الثورة العلمية التي فتحت الآفاق المعرفية، والجغرافية كذلك؛ فلا ننسى أنّ منتصف القرن التاسع عشر كان قرنا استعماريا، ما فتح عديدا من الدول الأوروبية على عوالم جديدة، وعلى ثقافات الأقاصي. ففي هذه الظروف، ازدادت الحاجة إلى تجييش العواطف القومية، ورفع من وتيرة التعارف والتثاقف بين الثقافات الأوروبية وغيرها، فكان لها الأثر المباشر في تطوير شبكة من العلاقات الأدبية.

النزعة التاريخية في الأدب المقارن:

كان لفرنسا قصب السبق في التأسيس لحقل دراسي جديد باسم (الأدب المقارن)، نظرا لتوفّر عدة عوامل تاريخية أدّت إلى ظهور أوّل مدرسة مقارنة.

تجدر الإشارة هنا، إلى أنّ المقارنة قد تطورت داخل حقل الدراسات الشعبية، برصد عملية انتقال القصص الشعبية من فضائها الشفوي إلى الأدب الرفيع أو الرسمي. غير أنّ هذه الدراسات اكتفت بالبحث أكثر في الخصائص العامة لشعب ما.

ثم تحول الاهتمام، في سياق المدرسة الفرنسية، إلى فرض رؤية منهجية وتصور تاريخي، ومحاولة رسم حدود هذا الحقل الأدبي، فكان الأدب المقارن هو الحقل المعرفي الذي يدرس العلاقات الأدبية بين أدبين أو أكثر.

إنّ السمة المعرفية الجوهرية في المدرسة الفرنسية هي المكانة التي مُنحت للتاريخ كرؤية في دراسة العلاقات الأدبية، فالأدب المقارن هو دراسة الصلات التاريخية بين الآداب المختلفة، استنادا إلى مبدئين مركزيين: مبدأ التأثير، ومبدأ التأثّر. وقد صاغ جويار هذا التصور في قوله: ((الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية)) (04)

إذ نلاحظ مدى ارتباط الأدب المقارن بتاريخ الأدب، غير أنّ الاختلاف بينهما أنّ الأوّل يكمّل الثاني؛ فإذا كان تاريخ الأدب يهتم بالتأريخ للظاهرة الأدبية في جميع نواحيها، فهو يفعل ذلك بالتركيز على تاريخ أدب بذاته فقط، أما الأدب المقارن فيكمّل الجانب الناقص منه،

والمتمثل في تاريخ العلاقات بين أدبين و أكثر. يظهر المقارن هنا بوصفه مؤرخا للظاهرة الأدبية في بعدها الدولي الواسع.

وبالنظر إلى هذه العلاقة التكاملية بين الأدب المقارن وتاريخ الأدب، تجلّت بوضوح مشكلة تسمية هذا الحقل بالأدب المقارن، لأنه في واقع الأمر لا يعبّر عن الجوهر التاريخي الذي يميزه، لذا، كان الأولى أن يُسمّى بالتاريخ المقارن للآداب. (05)

في الدرس التاريخي الذي ألقاه جان جاك أمبير في جامعة السوربون عام 1832، نبّه إلى الأهمية التاريخية لدراسة الأدب المقارن، إذ قال: ((سنقوم – أيّها السادة – بتلك الدراسات المقارنة التي بدونها لا يكتمل تاريخ الأدب)). (06)

والواضح من خلال ما قاله امبير أنّ الأدب المقارن هو جزء من تاريخ الأدب، لكنّه جزؤه المكمّل، ذلك أنّه يهتم بالرصد التاريخي للعلاقات الأدبية التي تنشأ بين الآداب القومية (أو الوطنية) في ظروف تاريخية محددة، والتي تُمكّن من انتقال التأثيرات من أدب إلى آخر من خلال وسائط وطرق كثيرة، وقد ساهمت هذه الحركة في إثراء الوعي القومي والإنساني في هذه الآداب. من هنا، تبرز أهمية انبثاق الوعي القومي في الثقافة الفرنسية والذي ساهم في تحول فرنسا إلى مركز للإشعاع الثقافي والأدبي.

ويُشترط عند دراسة العلاقات الأدبية ان يتم البرهنة بالأدلة التاريخية عن حدوث التأثير أو التأثر، لذا فإنّ من مجالات عمل الأدب المقارن هو البحث في وسائط التأثير، مثل الترجمة والرحلات، وحركة النشر، والكتب، وتتبع سير الأدباء المؤثّرين والمتأثّرين.

وتكمن أهمية هذه الوسائط في أنّها جزء من عوامل التأريخ للعلاقات الأدبية ذات الطابع الدولي، كما أنّها تبرز حركة انتقال الأفكار والأساليب والأشكال والموضوعات من ثقافة إلى أخرى. دون ان تغفل عن الاهتمام بما سماه ويليك بـ (الأوهام الوطنية)، أي دراسة الأفكار التي يملكها شعب عن شعب آخر.

الحركة الرومانسية ودورها في تطور الأدب المقارن:

كان للرومانسية الدور في توفير المناخ المعرفي والثقافي والأدبي لظهور الأدب المقارن، لاسيما دورها في الانفتاح على الثقافات والجماليات المُختلفة، والتشجيع على الرحلة واستكشاف المجهول. وكغيرها من المفاهيم، لم تكن لفظة الرومانسية بمنأى عن الفوضى المفاهيمية.

ويعتبر فريديريك شليغل المسؤول عن إدخال هذه اللفظة إلى عالم الأدب، وقد ادّعى بأنّه ألّف كتابا كاملا خصّه للتعريف بالرومانسية، ولو أنّ هذا الكتاب وقع هو الآخر في الاضطراب وفي التشويش.

شاعت لفظة الرومانسية في إنجلترا، وارتبطت بحكايات الرومانس (ومن هنا جاء أصل اللفظة) وهي حكايات الفروسية والغرام. وقد وردت اللفظة في تعبيرات ذات حمولات سلبية، مثل قولهم (حكايات رومانسية وحشية)، فكانت تحمل دلالات سلبية مثل التضليل، الحماقة، الكذب.

إلى أن جاء القرن الثامن عشر الذي أكسب اللفظة مدلولات إيجابية، فأصبحت مقترنة بمفهوم (الجمال)، (الرائع).

أما في اللغة الفرنسية، فأُستعملت الرومانسية للتعبير عن المناظر الطبيعية الخلابة، كما ورد في نص (تأمّلات المتجوّل الوحيد) لجون جاك روسو: ((إنّ شواطئ بحيرة بيان أكثر وحشية ورومانتكية من شواطئ بحيرة جنيف)) (07)

أما الروائي ستندال فعرّفها بأنها ((فن منح الناس تلك الأعمال الأدبية التي يُحتمل أن تعطيهم أكبر قدر ممكن من المتعة، والتي تطابق تقاليد ومعتقدات ذلك العصر)) (08) وحسب ستندال فالرومانسية هي حالة فنية تهدف إلى منح القارئ (المتعة) بما يستجيب إلى روح العصر.

ساهمت الرومانسية في إعادة صياغة مفهوم الإبداع الأدبي، والشعري بالخصوص، وأعادت له قيمته الفنية والجمالية بعد أن ارتهن في العصر الكلاسيكي إلى القيمة الأخلاقية. فظهرت مجموعة من المقولات الأساسية، مثل: الطبع، الأصالة، الإبداع، الطبيعة، العاطفة، الخيال...إلخ وُيعدّ الخيال إحدى أهم المقولات الرومانسية.

دور حركة التنوير الأوروبية:

بدأ عصر التنوير في أوروبا في القرن الثامن عشر، لكن ما يهمنا هو تأثيرها على الحياة الأدبية. فقد ساهمت هذه الحركة في تهيئة الأجواء لانفتاح القوميات الأوروبية على بعضها البعض، ثم على الثقافات الأخرى. وعلى الصعيد الأدبي، فإنّ أهم مكسب لها هو ظهور ما سُمي آنذاك بـ (جمهورية الآداب) التي كانت بمثابة حلم مثالي بجمهورية تضم الأدباء والعلماء والفنانين، تهدف إلى توفير سبل التواصل والاحتكاك والتفاعل الثقافي والتحرر من الوصايا السياسية والاجتماعية والطائفية. ففي عام 1666 أكّد أعضاء من أكاديميا فلورنسا على حرية التوصل بين مختلف المجتمعات المشتتة، لأن العالم أصبح هو وطن رجال الأدب، فظهر آنذاك مصطلح (المواطن العالمي).

في هذه المرحلة التاريخية، نشطت حركة الأكاديميات، ونشأت شبكة اتصالات بغرض التواصل العلمي. كما نشطت الصالونات الأدبية، خاصة في فرنسا، التي تحولت إلى مركز إشعاع ثقافي في أوروبا، استقطبت الأجانب. وكان للصحافة دورا في فتح الحدود بين اللغة الفرنسية واللغات الأوروبية الأخرى، حيث ((شكّل الإطلاع على الجرائد وعلى مصادر الأخبار الأخرى إحدى المهام الرئيسية للديبلوماسيين العاملين في الخارج، الذين كان عليهم ان يبعثوا إلى باريس وإلى فرساي عرضا شاملا عنها)). (09)

إحالات المحاضرة:

1. انظر: رينيه ويليك و أوستن وارن، نظرية الأدب، تر: عادل سلامة، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، دط، دت، ص67.

2. انظر: رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، تر: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 110، 1987، ص249
3. انظر: دانييل هنري باجو، الأدب العام و المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، دت، ص ؟
4. ماريوس فرانسوا جويار، الأدب المقارن، تر: هنري زغيب، منشورات عويدات باريس وبيروت، ط02، 1988، ص15.
5. أُنظر: محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت، ص13
6. المرجع نفسه، ص14.
7. ليليان فيرست، الرومانتيكية، تر: عدنان خالد، المركز الثقافي الاجتماعي، دط، دت، ص29.
8. المرجع نفسه، ص23.
9. بيار إيف بورويز، أوروبا التنوير، تر: محمد علي مقلد، الكتاب الجديد بيروت، ط01، 2008، ص54.